قصة زواج

ذيل القصـــــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهب الناسُ يميناً وشمالاً فيما كتبناه من خبر الإمام سعيد ابن المسيَّب وتزويجه ابنتَه من طالب علم فقير بعد إذ ضنَّ بها أن تكون زوجاً لولىِّ عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ؛ وقد جعلت قلوبُ بعض النساء العصريات المتعلمات تصيح وتُولـول . . . وحدثنا أديب ظريف أن إحداهن سألت عن عنوان عبد الملك بن مروان . . .

أفتُراها ستكتب اليه أنها تقبل الزواج من ولى عهده ؟

على أن للقصة ذيلاً ، فان الطبيعة الآدمية لاعصرَ لها ، بل هى طبيعةُ كل عصر . والفضيلةُ الأنسانيةُ يبدأ تاريخُها من الجنة ، فهى هى لا تتجدد ولا تزالُ تلوحُ وتختفى ؛ أما الرذيلة فأولُ تاريخها من الطبيعة نفسها ، فهى هى لا تتغير ولا تزالُ تظهر وتستتر .

***

لما زوَّج الامامُ ابنتَه من أبى وَدَاعة وأخذها بنفسه اليه فى يوم زوَّجها منه ، ومشى بها فى طريق حصاهُ عنده أفضلُ من الدُّرِّ ، وترابُه أكرمُ من الذهب ؛ طارت الحادثةُ فى الناس واستفاضَ لهم قولٌ كثير . « فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . » وقد قال جماعةٌ منهم : تالله لئن انقطع الوحىُ فان فى معانيه بقيةً ما تزال تنزل على بعض القلوب التى تُشبه فى عظمتها قلوبَ الأنبياء ؛ وما هذه الحادثةُ على الدنيا إلا فى معنى سُورة من السُّوَر قد انشقت لها السماءُ ونزل بها جبريلُ يخفُقُ على أفئدة المؤمنين خفقةَ إيمان .

« وأما الذين فى قلوبهم مرضٌ فزادتهم رجساً الى رجسهم . » وقال أناسٌ منهم : أما والله لو تهيأ لأحدنا أن يكون لصاً يسرق أمير المؤمنين أو ابنَ أمير المؤمنين لركب رأسَه فى ذلك ، ما يردُّه عن السرقة شىء ؛ فكيف بمن تهيأ له الصِّهرُ والحسبُ ، وجاءه الغِنى يطرُقُ بابَه — ما بالُه يردُّ كل ذلك ويُخزى ابنتَه برجل فقير تعيشُ فى داره بأسوإ حال ؛ وكيف تثقُلُ همتُه وتبطُؤ وتموتُ إذا كان الدرُّ والجوهرُ والذهبُ والخلافة ؛ ثم ينبعث ويمضى لا يتلكأ عزمُه إذا كان العلم والفقر والدين والتقوى

وانتهى كلام الناس الى الإمام العظيم فلم يحفِله إلا من الظن خفياً خفياً ، كأنما هى أقوالٌ حسِبَها تقال عنه بعد خمسين وثلثمائة وألف سنة ، فى زمننا هذا ، حين يكون هو فى معانى السماء ، ويكون القائلون فى معانى التراب النَّجِس الذى نفضتْه على الشرق نعالُ الأوربيين . . . !

قال الراوى : ولم يستطع أحد من الناس أن يواجه الإمامَ بشَفَةٍ أو بنتِ شفة ، لا مُضيِّقاً عليه من قلبه ولا موسِّعاً ، حتى كان يومٌ من أيام الجمعة ، وقد مال الناس بعد الصلاة الى حلْقة الشيخ وتقصَّفوا بعضُهم على بعض فغَصَّ بهم المسجد ؛ وكان إمامُنا يفسِّر قوله تعالى : « وما لنا ألا نتوكلَ على الله وقد هدانا سُبُلَنا ، ولنصبرنَّ على ما آذيتمونا . وعلى الله فليتوكلِ المتوكلون . »

قال الراوى : فكان فيما قاله الشيخ :

إذا هُدِىَ المرءُ سبيلَه كانت السُّبُلُ الأخرى فى الحياة إما عداءً له ، وإما معارَضةً ، وإما ردّاً ؛ فهو منها فى الأذى ، أو فى معنى الأذى ، أو عُرضةً للأذى . لقد وجد الطريق ولكنه أصاب العقبات أيضاً ، وهذه حالة لا يفضى فيها الموفَّق إلى غايته إلا إذا أعانه الله بطبيعتين : أُولاهما العزمُ الثابت ، وهذا هو التوكل على الله ؛ والأخرى اليقينُ المستبصر ، وهذا هو الصبر على الأذى

ومتى عزم الانسانُ ذلك العزم ، وأيقن ذلك اليقين — تحولت العقباتُ التى تصده عن غايته فآل معناها أن تكون زيادةً فى عزمه ويقينه ، بعد أن وُضِعْنَ ليكنَّ نقصاً منهما ؛ فترجع العقباتُ بعد ذلك وإنها لوسائل تُعين على الغاية . وبهذا يبسطُ المؤمنُ رُوحَه على الطريق ، فما بدٌّ أن يغلبَ على الطريق وما فيها . وينظر الى الدنيا بنور الله فلا يجد الدنيا شيئاً على نعيمها وتناقضها

إلا سبيلَه وما حَولَ سبيله ، فهو ماضٍ قُدُماً لا يَتَرادُّ ولا يَفْتُر ولا يكِلّ ، وهذه حقيقة العزم وحقيقة الصبر جميعاً

ومن ثَمّ لا تكون الحياة لهذا المؤمن مهما تقلّبت واختلفت — إلا نَفَاذاً من طريق واحدة دون التَّخبُّط في الطرق الأخرى ، ثم لا يكون العمرُ مهما طال إلا مدةَ صبرٍ في رأي المؤمن . وعزيمةُ النفاذ وعزيمةُ الصبر هما الضوء الروحاني القويّ الذي يكتسح ظلمات النفس مما يسميه الناس خمولاً ودَعَةً وتهاوناً وغفلة وضجراً ونحوَها

قال : ولكن كيف يُعان المؤمنُ على هذه المعجزة النفسية ؟ هنا يتبين إعجازُ الآية الكريمة ؛ فقد ذُكر فيها التوكُّلُ ثلاث مرات ، وافتتحت به وختمت ، والتوكل هو العزم الثابت كما أوضحنا . وذُكرتْ في الآية بين ذلك هدايةُ المرء سبيلَه ؛ وهذه الاضافة (سُبلنا) تُعيّنُ أنها هدايةُ الانسان الى سبيلِ نفسه ؛ أيْ سبيله الباطنيّ الذي هو مَناط سعادته في الشعور بالسعادة[1]

ثم ذُكر الصبرُ على أذى الناس ، والأذى لا يقع إلا في حيوانية الانسان ، ولا يؤثّر إلا فيها . فكأن الآية مُصرِّحةٌ أن نجاح المؤمن ونَفاذَه في الحياة لا يكونان أولَ الأشياء وآخرَها إلا بثلاث : العزم الثابت ، ثم العزم الثابت ، ثم العزم الثابت . وأن الصبر ليس شيئاً يُذكر ، أو شيئاً يُجدي ، إن لم يكن صبراً على أذى الحيوانية في أفظع وحشيتها ؛ فالروحُ لا تؤذي الروح ، ولكن الحيوان يؤذي الحيوان . وأن ما يقع من هذه الحيوانية فيسمى اعتداءً من غيرك ، ويسمى أذًى لك ، هو شيء ينبغي أن يجعله العزم فخراً لقوّة الاحتمال فيك ، كما جعله البطش فخراً للقدرة عند المعتدي

وبهذا يكون العزم قد فَصلَ بين نفسك الروحية وبين شخصك الحيوانيّ ، ووَهَبكَ حقيقةَ الشعور ، وصحح بمعاني روحيتك معانيَ حيوانيتك ؛ وحينئذ ترى السعادةَ حقّ السعادة ما كان هدايةً لنفسك أو هدايةً بها ، ولو انقلب في الشخص الحيوانيّ منك أذًى وألماً . ذلك صبرُ أُولي العزم من الرُّسل

* * *

قال الراوي : وعند ذلك صاح رجل كان في المجلس دسَّهُ عاملُ الخليفة ، ليسألَ الشيخَ سؤالاً على مَلأ الناس ، يكون كالتشنيع عليه والتشهير به ؛ وقد مَكَرَ العاملُ فاختاره شيخاً كبيراً أَنْقَف ، ليرحم الناسُ رقّةَ عظامه وكِبَرَ سنّه فلا يعرضون له بأذى ، ثم ليكون صوتُه كأنه صوتُ الدهرِ من بعيد . قال الصائح : ذلك أيها الشيخ صبرُ أولي العزم من الرسل ، أو صبر ابنتِك على مكاره العيش مع أبي وداعة ، لا يجد إلا رُمْقةً يُمسك بها الرَّمَقَ عليها وقد كانت النعمة لها معرضة ؛ فدفعتَها اليه زعمتَ — لتُهلكَ به شخصَها الحيوانيّ ، وتوكلت على الله وألقيتَ ابنتك في اليمّ ... ؟

فتربّدَ وجهُ الشيخ وأطرق هُنَيّاتٍ ، ثم رفع رأسه وقال : أين المتكلمُ آنفاً ؟ فارتفع الصوت : هأنذا . قال : ادْنُ مِنّي . فتقاعسَ الرجل كأنما تَهيَّبَ ما فَرَطَ منه . فاستَدناه الثانية ؛ فقام يتخطّى الناس حتى وقف بإزائه ثم جلس ؛ فقرأ الشيخ قولَه تعالى : « وبَرَزُوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كُنّا لكم تَبَعاً ، فهل أنتم مُغنونَ عنّا من عذابِ الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ ، سواءٌ علينا أَجزِعْنا أم صَبرْنا مالنا من مَحيص »

ثم قال : أيها الرجل ، لاتسمعْني بأذُنك وحدها . أرأيتَك لو سمعتَ خبراً ليس في نفسك أصلٌ من معناه ، أو وَرَدَ عليك الخبرُ ونفسُكَ عنه في شُغُلٍ قد أهمّها ، أفكنتَ تَنشطُ له نشاطَك للخبر احتفلتْ له نفسُك أو أصاب هوًى منك أو رأيتَه موضع اعتبار ؟

قال : لا

قال الشيخ : فاذا سمعتَ بأذنك وحدها فانما سمعتَ كلاماً يمرُّ بأذنك مرّاً ، واذا أردت الكلامَ لنفسك سمعتَ بأذنك ونفسِك معاً ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فكلُّ ما لا تنفرد به حاسةٌ واحدة ، بل تشارك فيه الحواسُّ كلها أو أكثرها — لا يكون إلا موضع اهتمام للنفس ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فمن هنا يكثر الفرح والحزن كلاهما إذا شاركتْ فيهما الحواس ، فيأتي كل منهما كثيراً مهما قلّ ، وتزيد كلُّ حاسّة في اللذة لذةً وفي الألم ألماً ، فتعمل النفس في ذلك أعمالاً

(١) سيأتي في كلام الامام بسط لهذا المعنى

تَسْحَرُها ، فيكون الشيء لصاحبه غيرَ ما هو للناس ، كالصوت الباكي أو الضاحك في لسان طفلك ، تسمعه أنت منه بكلِّ حواسك فإذا أنت سمعت الصوت عينه من لسان رجل في الناس رأيته غير ذاك . أكذلك هو ؟

قال : نعم

قال الشيخ : فيكون السرورُ بالغاً عجيباً أكثرَ ما هو بالغ ، حين يجدُ المالَ والغِنى في الانسان ، أم حين يجد القوةَ النفسيةَ وطبيعةَ المرَح والرضى ؟

قال : بل حين يَجِدُ في النفس

قال الشيخ : أرأيت الانسان يكون سعيداً بما يتوهَّم الناسُ أنه به غنيٌّ سعيد ، أم بشعوره هو وإن كان بَعُدَ فيما لا يتوهم الناسُ فيه الغِنى والسعادة ؟

قال : بل بشعوره

قال الشيخ : أفلا توجدُ في الدنيا أشياءُ من النفس تكون فوق الدنيا وفوق الشهوات والمطامع ؟ كالطفل عند أمه ، كل ما تعلق به من شيء وُزِنَ به هو لا بغيره ، وكان الاعتبارُ عليه لا على سواه ، أتعرف أمّاً ترضى أن يُذْبَح ابنُها في حجرها لقاء أن يُملأ حجرُها ذهباً ؟

قال : لا

قال الشيخ : فاذا كانت النفس تشعرُ أكثر مما ترى ، أفيذهب ما تراه فيما تشعر به ، ويكون شعورها هو وحده الذي يَلْبَسُ ما حولها ويصوّره ويصرّفه ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفتعرف أن لكل نفسٍ قويةٍ من هذا العالم الذي نعيش فيه عالَماً آخر هو عالم أفكارها وإحساسها ، وفيه وحده لذاتُ إحساسها وأفكارها ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفرأيتَ المرأةَ إذا صحَّ حبُّها أو فرحُها أو عزمُها ، أرأيتها تكون إلا في عالَم أفكارها ، أرأيتَ كلَّ ما يتصل برغبتها حينئذ يكون إلا من أشياء قلبها لا من أشياء الدنيا ؛ أرأيتها لا تعيش في هذه الحالة إلا بالمعاملة مع قلبها الذي لا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يجمع المال ولا يريد إلا الشعور فقط ؟

قال : نعم هو ذاك

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الأعان قد وُلِدَ ونشأ وترَعرَع في قلب المرأة ، ألا يكون هو طفلَ قلبها ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أرأيت إذا كانت الحر عندُمدُمنها شيئاً عظيماً ، وكانت ضرورةً من ضرورات وجودُه الضعيفِ المختلّ ، فلا يستقيم وجودُه ولا سَفَهُ وجودِه إلاّ بها ، أفيلزمُ من ذلك أن تكون الحر من ضرورات صاحبِ الوجود القويّ المنتظم ؟

قال : لا

قال الشيخ : أفُوقِنٌ أنت أن لابدّ من آخر لأيام الانسان ولياليه في هذه الدنيا فينقطع به العيش ؟

قال : نعم

قال الشيخ : أفيُؤرِّخُ الانسان يومئذ بتاريخ مَعِدَتِه وما حولها ، أم بتاريخ نفسه وما فيها ؟

قال : بل بتاريخ نفسه

قال الشيخ : فاذا كنتَ صاحبَ حربٍ ، وكنتَ بطلاً من الأبطال ومِسْعَراً من المساعير ، وأيقنتَ الموتَ في المعركة ؛ أيكونُ الحقيقُ عندك في هذه الساعة هو الموتَ أم الحياة ؟

قال : بل الحياةُ عندئذ وهْمٌ وباطل

قال الشيخ : فتَنفِرُ في تلك الساعة الى الحياة ولذّاتها في خيالك ، أم تفرّ منها ومن لذاتها ؟

قال : بل الفرارُ منها ، فان خيالها يكون خَبَالاً

قال الشيخ : ففي تلك الساعة التي هي عُمْرُ نفسك وعملُ نفسك ورجاءُ نفسك ، تستشعر اللذةَ في موتك بطلاً مذكوراً ، أم تُحِسّ الكربَ والمقتَ من ذلك ؟

قال : بل أستشعر اللذة

قال الشيخ : إذن فهي كبرياءُ الروح العظيمة على مادة التراب والطين في أيّ أشكالها ولو في الذهب

قال : هي تلك ؟

قال الشيخ : إذن فبعضُ أشياء النفس تمحو في بعض الأحوال كلّ أشياء الدنيا ، أو الأشياءَ الكثيرةَ من الدنيا

قال : نعم

قال الامام : رحمك الله . كذلك يُحيى عندنا أميرُ المؤمنين

وابنُ أمير المؤمنين ، ومُحيِيَ المالُ والغنى ، ولم يكن ذلك عندنا إلا سعادة . ومن رحمة الله أن كلَّ مَن هُدِيَ سبيلَه بالدين أو الحكمة استطاع أن يصنع بنفسه لنفسه سعادتها في الدنيا ، ولو لم يكن له إلا لُقَيْمات ؛ فان السَّعَةَ سَعَةُ الخُلُق لا المال ، والفقرَ فقر الخُلُق لا العيش

* * *

قال الراوي : ثم إن الامام العظيم التفت الى الناس وقال : أما إني — عَلِمَ الله — مازوّجت ابنتي رجلاً أعرفه فقيراً أو غنياً ، بل رجلاً أعرفه بطلاً من أبطال الحياة ، علك أقوى أسلحته من الدينْ والفضيلة . وقد أيقنتُ حين زوّجتُها منه أنها ستعرف بفضيلة نفسها فضيلةَ نفسه ، فيتجانسُ الطبعُ والطبع ؛ ولا نَهْنَأَ لرجل وامرأة إلا أن يُجانِسَ طبعُه طبعَها ؛ وقد علمتُ وعلِم الناس أن ليس في مال الدنيا مايشترى هذه المجانسة ، وأنها لا تكون إلا هدية قلبٍ لقلب يأتلفان ويَتَحابّان

ثم قال الامام : وأنا فقد دخلتُ على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] ، ورأيتُهنّ في دورهنّ يُقاسِين الحياةَ ، ويُمارِين من الرزق ماشحّ دَرُّه فلا يجيء إلا كالقطرة بعد القطرة ، وهنّ على ذلك ، ماواحدةٌ منهنّ إلا هي مَلِكَةٌ من ملكات الآدميّة كلّها ، ومافَقْرُهنّ والله إلا كبرياء الجنة ، نظرت الى الأرض فقالت : لا . . . !

يجاهدْنَ مجاهَدَةَ كل شريفٍ عظيم النفس ، همُّه أن يكون الشرفُ أو لايكونَ شيء ؛ ويرى الغافلُ أن مثلَهن في تعب الجهاد ، ويعلَمْنَ من أنفسهن غيرَ مايرى ذلك المسكين — يَعلمْن أن ذلك التعب هو لذة النصر بعينها

كانت أنوثتُهنّ أبداً صاعدةً مُتَسامِيةً فوق موضعها بهذه القناعة وبهذه التقوى ، ولا تزال متسامية صاعدةً ، على حين تنزل المطامعُ بأنوثة المرأة دون موضعها ، ولا تزال أنوثتها تنحدر مابقيتْ المرأةُ تطمع ؛ ورُبَّ ملكةٍ جعلتْها مطامعُ الحياة في الدرك الأسفل ، وهي باسمها في الوهم الأعلى . . . !

وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اطَّلَعْتُ في الجنةِ فاذا أقلُّ أهلِها النساء ، فقلت أين النساء ؟ قال : شَغَلَهُنّ الأحمران : الذهب والزعفران[1] . » أي الطمع في الغني والعملُ له ، والميلُ الى التبرج والحرصُ عليه

ونفسُ الأنثى ليست أنثى ، ولكن شَغْلَها بذلك التبرج وذلك الحرص وذلك الطمع — هو يُخصصها بخصائص الجسد ، ويُعطيها من حكمه ، ويُنزلها على إرادته ؛ وهُذه هي المزَلَّة ، فتهبط المرأةُ أكثر مما تعلو ، وتضعف أكثر مما تقوَى ، وتَفسد أكثر مما تَصلحُ . إن نفسَ الأنثى أنثى لرجل واحد ، لزوجها وحده

رأيتُ أزواجَ النبي صلى الله عليه وسلم فقيراتٍ مَقتورًا عليهن الرّزق ، غير أن كلا منهن تعيش بمعاني قلبها المؤمن القوى ، في دار صغيرة فرَشَها الأرض . . . ولكنها من معاني ذلك القلب كأنها سماء صغيرة مختبئة بين أربعة جدران . إنهن لم يبتعدن عن الغنى إلا ليبعُدْنَ عن حماقة الدنيا التي لا تكون إلا في الغنى

* * *

أفٍّ أفٍّ ! أتريدون أن أزوج ابنتي من ابن أمير المؤمنين فيخزيَها الله على يديّ ، وأدفعها الى القصر وهو ذلك المكان الذي جمع كلَّ أقذار النفس ودنس الأيام والليالي ؛ أأزَوّجها رجلاً تعرفُ من فضيلة نفسها سقوطَ نفسه ، فتكون زَوجَةَ جسمه ومطلّقةَ روحه في وقتٍ معاً ؟

ألا كم من قصرٍ هو في معناه مَقبرةٌ ليس فيها من هؤلاء الأغنياء رجالِهم ونسائِهم إلا جيفٌ يَبلى بعضُها بعضاً !

(١) توفى سعيد بن المسيب سنة إحدى وتسعين للهجرة أو حولها ، وكان قد لقى جماعة من الصحابة وسمع منهم ، ودخل على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وكان متزوجاً ابنة أبي هريرة الصحابي الجليل ، وعنه أكثر روايته

(١) هذان هما فتنة النساء في كل دهر ، وهذا الحديث من المعجزات ، فالذهب كناية عن المال والحلى وما كان من بابهما ، أما الزعفران ففيها المعجزة لأنها كناية مطلقة فهمها العرب دلالة على الثياب المصبغة ، ونفهم منها نحن كل أنواع زينة النساء ، من المساحيق والعطور ، الى (المودة) التي هي أصباغ معنوية لأشكال الثياب . وقد كان العرب يقولون : غمرت المرأة وجهها إذا طلته بالزعفران ليصفو لونها . ويقولون من ذلك : امرأة مغمرة ، وتغمرت . أى فعلت ذلك (فالزعفران) كما ترى كناية تدخل فيها (البودرة) والأدهان المختلفة ، وكل ما أفسد وجه المرأة ليفسد حياتها الاجتماعية . . . وسنضع إن شاء الله مقالا في التبرج وحقيقته وفلسفته